الريحانيَّات المُنتقة

نظر انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعيّ

لكلّ داء دواء يُستطبُّ بهِ إلّا الحماقةَ أعيَتْ من يُداويها

توطئة

انتقدنا سابقاً في المشرق (١٣ [١٩١٠] : ٣٨٩- ٣٩٢ و ٧٠٣—٧١٠) الجزئين الاوّلين من الريحانيّات وها هوذا صاحب المطبعة العلميّة يوسف افندي صادر قد عاد وجدّد طبعهما واضاف اليهما جزئين آخرين فأعلن بفعلهِ هذا انهُ يشارك بأفكارهِ ذاك الكاتب المتهتّك الذي يرشق بلسانهِ السليط دين اجدادهِ الموارنة ويشتم رئيس طائفتهِ الجليل ولا يحترم شيئاً من تعاليم الكنيسة ومعتقدات الاديان بل لا يكاد يمسُّ موضوعاً لخطابهِ إلّا ينفث فيهِ شيئاً من سمّهِ. وها نحن نبيّن ذلك في الاسطر التالية عن الجزئين اللذين صدرا جديدًا ونقسم هذه النبذة الى ابوابٍ ليسهل على القرّاء الرجوع اليها

ولا نظنّ اننا بانتقادنا نُسيء الى صاحب الريحانيّات وهو القائل عن احد منتقديهِ (٣ : ١٢٤) : « هو عندي من اعزّ الاصدقاء بل اعزُّهم غير مدافع لانه لا يجاملني ولا يداريني ولا يداهنني فلهُ درُّهُ من صديق يناقش غير عاذر ينبّه ويذكّر ويُنذر »

١ ملحوظات عموميّة

انَّ من يقرأ او يسمع شيئاً من كلام امين الريحاني يُعجبهُ شبه الدُّوار لكثرة ما يركمهُ في الصفحة الواحدة من الافكار المتباينة المتناقضة لا يبالي بصحيحها او فاسدها بصدقها او كذبها فيتنقّل معهُ السامع دون ان يجد لهُ وقتاً ليسيغ غصّتهُ ويهضم ذاك الطعام الثقيل ويتروّى في حسنه او سوئهِ فينخدع بأهوجيّة كاتبهِ وينبهر بزخرف عباراتهِ. وقد شبّهنا كتابة الريحاني بدكّان خردجي ترى فيها خلطاً من الاثاث والآنية المزوّقة

العتيقة المزيّفة فلا يعلم الناظر ما يختارهُ منها وصاحبُها يندفع في اطرائها والمبالغة في تسويتها

ومما يزيد القارئ اندهالًا ما يراهُ في كتابات الريحاني من الإشارات المتعددة الى تواريخ الامم واعمال الفلاسفة وتآليف كبار الرجال يتكلّم عنها كأنهُ قضى الحياة في درسها وتمعّن في مضامينها فيحكم كما يشاء في محتوياتها وليس هو في كلامهِ الّا كالببغاء يردّد ما قرأهُ في الجرائد السيّارة او كتب الروايات او اعداء الدين فيعتبر أحكامهم اعتبار الحكماء العقلاء فينغشّ بها ويغشّ سامعيهِ والمنتمين اليهِ

٢ الريحاني ووجود الله

يكرّر الريحاني في مقالاتهِ اسمهُ تعالى الّا انّ هذا الاله ليس هو إله النصارى ولا إله المسلمين ولا إله اليهود. ينكر عليهِ اخصّ صفات الله عزّ وجلّ كصفة الخالق بانحيازهِ الى المادّيين والدروينيّين. وصفة العناية اذ لا يرى في هذا العالم ما يتخيّلهُ من النظام. وصفة الوحي للانبياء. وهو يعتبر كلّ الاديان اختراعات بشريّة تتكيّف على كيفيّات مختلفة حسب الامكنة والازمنة. فالبوذيّة والمجوسيّة كاليهوديّة والاسلام والنصرانيّة ليس في جميعها اثرٌ من وحي الخالق

لا بل ليس الاله الذي يذكرهُ الريحاني سوى مجموع المخلوقات فمذهبهُ اقرب الى مذهب الحلول والانتشار منهُ الى مذهب التوحيد. وفي كلامهِ ما يشعر بتألّهِ نفسهِ ففي الصفحة الاولى من الجزء الرابع يناجي الله عزّ وجلّ بالفاظ ملتبسة من جملتها قول يحملهُ على لسانهِ تعالى: «انّما انا مصدر الادراك البشري وسأزيدك ادراكاً بأنك جزء مني» فالريحاني اذن هو جزء من جوهرهِ تعالى. اطلب ايضاً ما نقلناهُ عنهُ في وصف الجرذان الذين شبّه بهم البشر لا يعرفون شيئاً من اصلهم وغايتهم فهم في هذا العالم كالجرذان في قبو مظلم تتوالد وتنمو ولا تدرك شيئاً من حالها (المشرق ١٣ [١٩١٠]: ٣٨٩–٣٩٠) فاستحقّ بان يُدعى بالجرذون الكبير

٣ الريحاني والدين

قلنا في عدد سابق (ص ٤٧٨) انّ الريحاني مصاب بالكَلَب السلاديني يهيج

لكلّ اثر يراهُ من آثار الدين لا بل يتوهّم وجود الدين حيث لا شيء ينبّه الى الدين كما فعل في خطبهِ في بغداد ومصر وزحلة وفي جامعة بيروت الاميركيّة فتعرّض للاديان حيث لم يكن داعٍ لذلك. وقد افادنا بالجزء الثالث من ريحانيّاتهِ عن سبب كفرهِ (ص ٤٤) يقول انهُ دعا على ولد من رفقتهِ بالموت فاستجاب الله دعوته. (قال): «وهكذا قد داخل الشكّ ايماني منذ حداثتي» والله اعلم بسبب موت الولد وعلى كلّ حال ان كانت دعوتهُ عليه هي التي عجّلت موتهُ فكان هذا اجدر بتثبيت ايمانهِ في وجود الله من الشكّ بهِ اذ لولا وجود الله لما استمع دعوتهُ. فبئس صنيعهُ اذن لنبذهِ دينهُ كما قال (ص ٤٧): «اما دين اجدادي فقد كان في جيب قبائي الذي خلعتهُ يوم ركبت البحر مرتحلاً» (كذا)

ولم يكتفِ الريحاني بجامعهِ دين اجدادهِ بل تراهُ يصوّب اليهِ خصوصاً كلّ سهامهِ فالسيّد المسيح بعينهِ هو فقط «الناصري» (٣: ٥٨) او «الجليلي» (ص ٥٠) كما كان يدعوهُ يليانوس الجاحد.. يؤكّد ان «قريشاً» اي الاسلام «عليهِ انتصر» (ص ٥٠) فلا بدَّ انهُ سيصرخ يوماً كيوليانوس «قد غلبتَ يا جليليّ»

ويزعم فيلسوف الفريكه (٣: ١١٢) ان في الاسفار المقدّسة اغلاطاً تشوّهها كايقاف الشمس اكراماً ليشوع بن نون (ص ١١٤) قال: وتلاميذ المدارس اليوم يعرفون «انَّ الشمس لا تجري ولا تقف». ومع ذلك الكلّ يسمعون الريحاني صباح مساء يقول: قد طلعت الشمس وقد غابت الشمس. وصغار المدارس يعرفون انَّ الشمس لا تطلع ولا تغيب وانَّما الارض هي الطالعة والغائبة اما وقوف الشمس فينكرهُ الريحاني لانكارهِ اي معجزة كانت ولعلّهُ يفسّرهُ تفسيراً سيّئاً

وقد كانت جريدة القبلة في مكّة وبعض جرائد مصر نشرت خبر إسلام الريحانيّ فكتبنا وقتئذٍ نبذةً (في الشرق ٢١ [١٩٢٣]: ٤٧٨) بيّنّا فيها انَّ اسلام الريحاني يشبه نصرانيّتهُ اي اللادينيّة والزندقة. ولنا في جزئي الريحانيّات الجديدين شواهد عديدة على تبجيلهِ الاسلام بغضاً بالنصرانيّة لا اعتقاداً بالاسلام حقيقيّاً

ففي مقالتهِ المعنونة بالكنيسة والجامع يُطري بمحاسن المجامع متهكماً كما يظهر من بعض اوصافهِ «عن المتمدّد على الرخام البارد» وعن «الدرويش المتمتم قائلاً بسم الله الرحمان الرحيم ويعدّد خرزات سبحتهِ حتى تبلغ النفس منهُ درجة الغيبوبة» (٣:

٥٣) ثمّ ينتقل الى وصف كنيسة دخلها في نيويورت فلم يعجبهُ نظامها فانتهى بقوله (ص ٥٩) : « تعالَ يا اخي المسيحي الفقير تعالَ معي الى الجامع »

واذ دخل يوماً الى مكتبة احد الكتبيين المسلمين (٣ : ١٣٢) افادنا الريحانيّ النصرانيّ الماروني انّ تلك المكتبة «لا كفر يدنّسها ولا إشراك يباع فيها المصحف والغزالي والبردة والبيضاوي » اراد بالكفر والاشراك دينهُ المسيحيّ فتأمّل !

ولا يتوهّم المسلم انّ إسلام الريحانيّ صحيح فانهُ ينسب المناقضة الى القرآن (٣ : ١١٤) كما ينسبها الى التوراة . وفي مقالتهِ الاولى « نور الاندلس » يجعل في فم ابن الرشد الذي يزعم انهُ تراءى لهُ كلاماً في حقّ الاسلام (٣ : ١٨—٢٥) لا نظنّ انّ احد المسلمين يُسَرُّ بهِ ونُحيل اليهِ صديقنا السيد محمّد كرد علي فيرى ما يقولهُ في مفاخر الاندلس

ومجمل القول انّ الريحانيّ كصيفهِ في المدرسة العلمانيّة اللادينيّة (المشرق ١٤ [١٩١١] : ٦١٦) لا يستنكف القول بانّ « محمّداً والمسيح وموسى يجب وضعهم في كيس واحد فيلقون في البحر » أفلا ترى سَفسافنا يقول (٤ : ٣٢—٣٣) انهُ يريد تركيب معتقده بالله من احرف يأخذها عن تعاليم الهنود الوثنيين (الفيدا) والمجوس الفرس (الزند آفستا) وعن الانجيل وعن القرآن مستهزئاً بكل هذه الاديان على سواء

وكم وكم من هذا اللفظ والكلام النجس المبثوث في مقالات الريحاني الذي تشرّف بزيارتهِ في الفريكة صاحب العرفان المسلم الشيعيّ واطرأ فضلهُ وفلسفتهُ ثمّ ختم كلامهُ بهذه العبارة اللطيفة (العرفان ٣ : ٢٦٢) « فما قول الاب لويس شيخو اليسوعي عدوّ العلماء المفكرين » فنحن نقول لجناب احمد عارف الزين « ما قولهُ في ما نرويهِ عن الريحانيّ من الآراء الكفريّة في دينهِ ودِيننا ألا يصدق في حقهِ قول النابغة الشيباني: « وكلّ امرئ لا يتّقي الله احمقٌ » فان كان تُقى الله هي عداوة العلم فنرضى ان نُقرَّع بالجهل وندع العلم للريحاني وامثالهِ

٤ الريحاني والفلسفة

دعا البعض الريحانيّ فيلسوفاً وانّما هذا اللقب لا يصحّ في شخصهِ الّا بالمعنى الذي قالهُ الشاعر البستيّ :

تقّى الله والزَمْ هُدى دينهِ ومن بعدِ ذا فالزَمِ الفلسفَهْ

ولا تغتر بأناس رشّوا من الدين بالزور والسفسفه
ودع هذلك قوماً بهوسهم فلسفة المرء قلّ السفه

فهيهات اذن ان يكون الريحاني فيلسوفاً لانّ تحديد الفلسفة هو معرفة الامور بأقصى عللها ويجهل الريحاني علّة العلل الاله الحقيقيّ كما رأيت وان كان يذكر اسمهُ الكريم بالشفاه فانّ قلبهُ بعيدٌ عنهُ

وان اردنا ان نفحص مبادئ هذا المتفلسف ونعرضها على محكّ الانتقاد وجدناها والفلسفة الصحيحة على طرفي نقيض : فممّا يُشتمّ من معظم مقالات الريحانيّات المنتقة رائحة الثورة والفتن والعصيان على كلّ سلطة دينيّة ومدنيّة . حرّيّتهُ مطلقةٌ ليس لاحد ان يقيّدها ففي الصفحة ٨٢ من الجزء الثالث يقول عن نفسهِ انهُ «عربي شرقيّ ثوروي . شرقيّ الروح ثوروي المبدأ . . . سلاحهُ من الله» . يقدّس الثورة (ص ٨٥) «في البيت وفي الحريم وفي المعابد» ويدعو (ص ٧٩) «الى التدمير والتخريب بالسيف والمشعل» بل يبلغ الى هذا التجديف الشيطاني فيقول (ص ١٧٩) «انّ الثورة كلمة الله مجدّدة في الاشياء» وانها (ص ١٨٠—١٨١) «ناموس كلّي ازليّ . وسنّة الهيّة ازليّة»

فهذه هي فلسفة الريحاني فلسفة الفوضى والعصيان والاستبداد» فلسفة ابليس يومَ تمرّدهِ على الخالق في السماء بقولهِ : لستُ مطيعاً . راجع مقالات الريحاني : «الثورة الحقيقيّة وروح الثورة والاخلاق ولا حرّيّة الّا بالسيف» تجدها كلها ضاربةً على وتر واحد» اي «قلّ سفه» كما قال البستيّ

٥ الريحاني والسياسة

سياسة الريحاني كفلسفتهِ بل هي نتيجة فلسفتهِ تنجم عنها كالزهرة من بزرعها وكالثمرة من زهرتها . كان لبنان منذ سنين من السنين يئنّ تحت نير مماليك مصر والاتراك وهو يطلب الفرج من الله بواسطة الدولة الفرنسويّة فلمّا اتتهم وهم يصرخون كما روى الريحاني (٣ : ٩٢) : «لا اطلب سوى الفرج وكسرة الخبز . ليأتِ الفرج ولو عن يد القرود ليأتِ الخلاص ولو عن يد الشياطين» فافرجتهم وارخت خناقهم ومتّعتهم بالراحة والسلام وهي لا تزال تسعى في سعادتهم . فها هوذا الريحاني السوري اللبناني الماروني ينادي بالويل والثبور ويصف فرنسة ومخلّصيها وصفهُ لأكبر اعداء بلادنا . ففي مقالتهِ التطوّر والاستقلال (٤ : ٢١٠—٢١٦) ما يستحقّ ان

تجازَيهُ عليهِ الحكومة بأشدّ عقوباتها وان يتغلغل في وجههِ كل وطني عاقل عالم بحقيقة الاحوال ولاسيّما الموارنة الذين يشتم رئيسهم الجليل الـذي بذل نفسهُ في صلاحهم فاسمع كلامهُ :

«لا شكّ عندي انّ سياسة فرنسة السوريّة ستكون الآن فصاعدًا سياسة توحيد لا تفريق. ولا شكّ عندي انّ الامير فيصلًا وهو الزعيم البصير الحكيم يستطيع ان يقف بالمتهوّسين عند حدّ التعقّل والاعتدال . . . اذا تقصّينا الاسباب يتّضح لنا المسئوليّة في بادئ الامر انما هي على اللبنانيين انفسهم وقد وكلوا امورهم السياسيّة الى رئيس طائفة مسيحيّة فاستحالت المسألة وقد اكتسبت صفة دينيّة احتجاجًا على الاسلام صريحًا جليًّا (!!) ناهيك باسترسالهم الى حبّ فرنسا حتى الهوى (الهوس) حتى الجنون (كذا) . . .

« قد حان لبني لبنان ان يفهموا انّ فرنسا تريد بسط حمايتها في البلاد السوريّة كلها . وانما تلعب بساداتنا اللبنانيين والاكليروس لعب الأكثر (كذا) . . . أنّنا نلوم فرنسا على مثل هذه السياسة . . . فلو احسنت فرنسا النصح للبنانيين منذ البدء ولو لم تمالئ الاكليروس اللبناني وتغذّهُ بسكوتها ثمّ بمالها ومفرزها في حماية الطائفي لما حدث ما حدث من المظالم والفظائع في المدن المجاورة المنطقة الشرقيّة فهل كان في سوريا خوف من العصابات قبل سفر البطريرك الماروني الى باريس . . . (ومن ثمّ الذنب على قولهِ عائد الى السيّد البطريرك)

ولهُ في فصل « المردة والصليبيّون » مثل هـذه الاقوال السمجة يحرّش فيهِ بين المسلمين والنصارى ويثير البغض في قلب اللبنانيّين على الصديقة والمحامية بهذه الالفاظ المستقبحة (٤ : ٢١٨)

« هل يظلّ هذا الشعب اللبناني الجامد في بلاده منقادًا الى الاكليروس والى الاعيان عبيد الاكليروس اولئك الذين لا همّ لهم من استقلال لبنان غير ان يظلّوا متبوّئين كرسيّ السيادة قابضين على نفوس اللبنانيين وعقولهم . . . أتتطوّر الامم في سائر العصور عملًا بسنّة الارتقاء ويظلّ اللبناني مقيّدًا بقيود التقاليد العتيقة قيود العصبيّة الطائفيّة قيود صانعها الاكليروس والاعيان في الاجيال الغابرة ولا يزال الاكليروس والاعيان يستخدمونها اليوم لمآربهم الذاتية . انّ وطنيّة فيها مساعدة افرنسيّة دائمة هي وطنيّة فاسدة في بادئ الامر زائلة لامحال في آخره »

فهذه سياسة الريحاني اغراء وتحريش ونكران الجميل لأحبّ الدول واكرمها نحو بلادنا وانزهها في خدمتنا

٦ الريحاني والادب

وليس ادب الريحاني افضل من دينهِ ومن فلسفتهِ وسياستهِ . فتراهُ يجاهر بالفحشة والسفاهة او التهكّم البارد . فانهُ في اوّل صفحة من مقالتهِ يقول عن الاندلس (ص٣) :

« سمعتُ حمارها وفلّاحها وشريفها يتغنّون بأندلسيا » فترى انّ الريحاني عالم بلغة

الحير . وفي كعب الصفحة ١١٣ « كلب الكوفي خير من الف صوفي » . وفي الصفحة (٣ : ١٤٦) يشرّفنا نحن اليسوعيين بألطافه الادبيّة فيقول « أمّا المستحجرة قارعهم والمتجزوتون فانّهم وان انذرتهم لا يؤمنون » وقد شرح في ذيل تلك الصفحة ما يريد بالمتجزوتين اي على قوله المشعوذين فرآنا برآة انعكست اليها نفسهُ . ولا بأس ان يقترح على اهل اللغة ادخال هذه المادّة في لغتنا العربيّة فانّ الاعمى يدعو النور ظلمة كما انّ العليل يرى الحلو مرًّا . وكفى بهذا القليل دليلًا على ادب الريحاني

٧ الريحاني والتاريخ

لو شئنا ان نفتقد اكاذيب الريحاني التاريخيّة لطال بنا المجال . فليفدنا هذا المؤرخ الضليع متى كان « لبني ساسان فضلٌ في بغداد » (٣ : ٢٢) وبغداد بُنيت بعد بني ساسان بزمان . واين وجد « انّ الديانة الكاثوليكيّة اخذت الصوم عن الديانة الوثنيّة » (٣ : ٩٥) . وكيف يثبت (٣ : ٩٥) انهُ « في عهد شرلمان كان يُحكَم بالموت على من لا يصوم صومهُ كلّه ومن اهملهُ مرّة او مرّتين تقلع اسنانهُ !!! » . وهناك فصلٌ عن الصوم كلّهُ لغطٌ وخلطٌ وسفاهة . امّا مقالتهُ عن هباسيا والقديس كيرلّس الاسكندري (٣ : ٩٧—١٠٨) فقد فنّدها مدرّس التاريخ في كلّيّتنا (المشرق ١٣ [١٩١٠] : ١٤٤—١٤٩) بادلّة ساطعة ونسف كلّ ترّهات الكاتب المشعوذ الذي عاد فنشرها في ريحانيّاته ولم يلتمح الى تزييفها

ومن أتقن مقالات الريحاني الفصلُ الذي كتبهُ عن « القديس اوغسطينوس والنزالي » (٣ : ١٠٩—١١٨) فانّهُ قد لاح لنا في كلامهِ عنهما اشبه بالاعمى الاكمه الذي يريد وصف الالوان فيهرف بما لا يعرف

وما قولنا بمقالاتهِ الثنائية على الدكتور شبلي شميّل المادّي الدرويني (٣ : ١٥٦) وعن رئيس المحافل الماسونيّة جرجي ديتري سرسق (١٦١) فان اطراءهُ لمحامدهما لا يستر عن معائبهما وكلّ طير يأوي الى جنسهِ

ولولا ضيق المكان لاتّسعنا في بيان مزايا الريحانيّات التي لم نجد كلمةً اوفى في حقّها من وصفها بالمتنتة وذلك بالرغم عمّا في بعض الفصول من المحاسن التي لانكرها وكنّا نودّ ان نذكرها لو لم يشوّهها الريحاني بما يطمسها ويزيل رونقها